8

الموسيقا

لقد ألهمت الموسيقا الفنانين المسلمين على الدوام فصوِّروا الموسيقيين والراقصين حيثما ظهروا، كما لعبوا دوراً أساسياً في مجموعة صور البلاط التي تحوي الشاربين والصيادين والمحاربين والملوك المُتوَّجين كذلك، إذ تظهر الراقصات على جدران الحمام في قصر خربة المفجر(79) Khirbat al-Mafjar في الأردن العائد للقرن الثامن، وعلى جوانب القوارير الفضية في إيران، التي تعود إلى العهد الساساني وأوائل عهد الإسلام. ويزيِّن الموسيقيون صندوقاً عاجياً للروائح العطرة من الأندلس يعود إلى القرن العاشر، في حين تظهر راقصة رشيقة على لوحة عاجية من مصر الفاطمية تعود إلى القرن الحادي عشر. وكان من النادر أن تظهر الشخصيات المُتوَّجة كالملوك في القرن الثاني عشر في إيران السلجوقية Seljuk Iran على الخزفيات دون موسيقيي البلاط، كما أن أعمال المواد المعدنية المرصَّعة في القرن الثالث العشر من الموصل ودمشق، تظهر الموسيقيين والراقصين أيضاً.

وكلما كان الأمراء أو الملوك أو الشخصيات المهمة يقيمون نزهة أو احتفالاً ما، كان الموسيقيون يعزفون لهم ويغنون على العود والدف. وغالباً ما كان الدراويش في هذه التجمعات يُصوَّرون وهم يعزفون على الآلات الوترية، وكانت بعض مشاهد الدراويش الراقصين تتضمن الطبّالين والزمّارين. وبالإضافة إلى الموسيقا، التي كانت تُؤدَّى في المناسبات الاجتماعية، ظهرت الشخصيات التي تعزف على الطبول وتنفخ في الأبواق الكبيرة في مشاهد المعارك أيضاً. وفي الهند، ومع تقاليدها القوية في فن رسم الشخصيات، كان فنانو البلاط يرسمون الموسيقيين المشهورين. إن شهرة أولئك الذين

عازف الربابة، إيران الصفوية، قزوين، موقعة من جانب «محمد جعفر» عام 1590. ألوان مائية معتمة وذهب على ورق.
بعد موت الشاه طهماسب **Shah Tahmasp** (80) في عام 1576 تمت دعوة الموسيقيين، الذين مُنِعوا من دخول البلاط الصفوي إلى العودة. ومن هذا التاريخ فصاعداً قدَّم الفنانون لوحات ورسومات للموسيقيين من صفحة واحدة بشكل إفرادي أو في مجموعات.

أسسوا أنماطاً موسيقية خاصة (وكذلك بعض الأغاني) بقيت حتى هذا اليوم.

كان الموسيقيون في العالم الإسلامي يعزفون على تشكيلة واسعة من الآلات، ومنها الآلات الوترية، مثل الأعواد الوترية والقوسية، والقيثارات، بالإضافة إلى الطبول والصنوج والدفوف والأبواق والمزامير. وتظهر كلها اختلافات إقليمية في الشكل، مما يعكس عدة أنماط موسيقية. وتصنِّف أطروحة عربية من القرن العاشر حول النظرية الموسيقية الآلاتِ وفقاً للوضعية الأعلى لتلك الآلات التي تقترب فيها إلى حد كبير من الصوت البشري. ولقد عزف الرجال والنساء جميعاً على الآلات وغنوا ورقصوا.

ومع أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- لم يعترض شخصياً على الموسيقا والغناء، فإن الخلفاء الراشدين الأربعة الذين خلفوه نظروا نظرة قاتمة إلى الموسيقا. وفي المدارس الدينية الأكثر تشدداً كانت الموسيقا محرمة، ولقد أدانتها عدة أطروحات، على الرغم من أن العلماء من العصور الوسطى أشاروا إلى أن تلاوة القرآن هي في الحقيقة نوع من أنواع الغناء. ومع ذلك استمرت الرعاية الملكية، ووظفت النخبة المدنية الفتيات المغنيات والمغنين الذكور المحترفين لتأدية الأغاني الفنية في منازلهم، وترافقت هذه الأغاني غالباً مع العود.

وتركِّز الكتابات في موضوع الموسيقا، التي ظهرت في العصور الأولى والوسطى للإسلام على صنفين رئيسين: أطروحات حول النظرية الموسيقية، ونصوص تعالج موضوع الأغاني والموسيقا بمنحى عملي. لقد جمع المؤلفون من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر مجموعات من الأغاني الشعبية، وكان أفضلها كتاب الأغاني للأصفهاني. ولسوء الحظ، لا

تدل هذه المجموعات على صوت الموسيقا: فقد اخترع العلماء النظريون طرق الترقيم، لكن الموسيقيين لم يستخدموها. وتكشف مصطلحات هذه الأطروحات عن فهم معقد للتمييز بين التقنيات الصوتية وتقنيات الآلات، وبين الهياكل الشكلية والهياكل الإيقاعية.

وشكل آخر للموسيقا ينطبق بشكل محدَّد على الصوفيين. ويدعى «السمَع»، ويتضمن سماع الموسيقا التي يمكن أن تنتج حالة النشوة عند المستمع الصوفي. وبالإضافة إلى تلاوة القرآن والصلوات، يمكن لنمط «السمَع» أن يتضمن غناء الشعر الدنيوي الذي تكون فيه القصائد الموجهة إلى الحبيب استعارات لحب الله أو رسوله محمد. ومع مرور الزمن توسَّع أداء نمط «السمَع» من الغناء (بمرافقة الآلات

أو دونها) ليشمل الرقص ويتبعه الطعام. ولم يعجب بعض رجال الدين والمشرعين الإسلاميين بنمط «السمع»، فكانوا يظنون أنه لذة جسدية أكثر من كونه نشوة روحية. وعلى الرغم من ذلك، استمرت شعبيته دون توقف، وأخذت المعوقات التي وضعت أمامه شكل النهي عن استعمال بعض الآلات وتفضيل آلات أخرى مثل الدف والناي. وكان نمط «السمع» عملياً يمارس في سياق «الذكر» - أي تكرار الكلمات أو الجمل للحثّ على التركيز على الله.

ويجب أن نفهم العديد من اللوحات والرسومات الفارسية والمغولية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، التي تظهر الدراويش وهم يغنون ويرقصون، على أنها صور لنمط «السمع».

اليمين: تفصيل من قارورة الحاج.
تعتبر السيدة الرشيقة عازفة القيثارة، التي ترتدي وشاحاً تحت عمامتها، عنصراً من مجموعة صور البلاط، التي وجدت على الأعمال الزجاجية والمعدنية في العصور الوسطى للإسلام. ويبدو كأس من النبيذ الأحمر وطبق كبير من الفاكهة يعومان في الهواء حولها.

تفصيل من وعاء «فاسو فيسكوفالي Vaso Vescovali» ذي الغطاء.
تتجسد إشارة برج الجوزاء الفلكية عبر توأمين راقصين جسداهما ملتفان للخارج، لكن رأسيهما متوجهان للداخل نحو رمز كوكب عطارد – عصا بقناعين تمثل الكوكبين المزيفين اللذين كان يعتقد أنهما يسبّبان الكسوف. وهذان التوأمان إما يمسك أحدهما بيدي الآخر أو أنهما يمسكان بالعصا المركزية، في حين يثنيان ذراعيهما الخارجيين إلى الخلف ويمدان قطعة قماش بينهما. وحتى في السياقات الفلكية، كان للموسيقا والرقص تأثير على تصوير الكواكب وإشارات الأبراج.

الأسفل: تفصيل من مقلمة/حافظة قلم.
يوجد في ميدالية صغيرة على جانب حافظة القلم راقص يقوم بتحريك أكمامه الطويلة على إيقاع الموسيقا، التي يبدو أنها تنبعث من قارع دف في ميدالية أخرى على يسار المشبك.

اليسار: تفصيل من إبريق «بلاكاس Blacas».
القيثارة والناي، وهما يترافقان غالباً معاً. إن تزيين القيثارة هنا وإنهاءها برأس طير يدلان على الأهمية المعطاة للموسيقا ضمن ترتيبات البلاط الملكي.

تفصيل من وعاء «فاسو فيسكوفالي Vaso Vescovali» ذي الغطاء.
يظهر عازف القيثارة وشارب الخمر في شريط تحت حافة الوعاء تماماً. وعلى عكس العديد من الرسومات للقيثارة على المواد المعدنية والزجاجية، فقد ضُمنت الأوتار هنا.

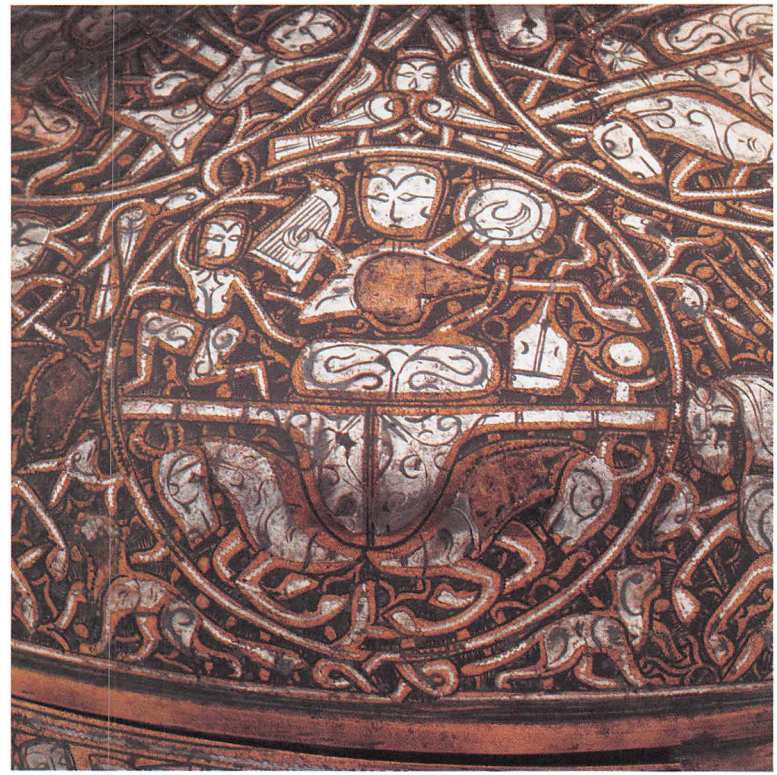

تفصيل من وعاء «فاسو فيسكوفالي Vaso Vescovali» ذي الغطاء.
تقوم هذه المرأة المتعددة الأذرع، التي تكوّن فرقة حقيقية من امرأة واحدة بتجسيد كوكب الزهرة. فهي تعزف على القيثارة والعود والدف، في حين توجد آلة وترية أخرى قرب طبق فاكهة على اليمين، وراقصة تتمركز على الجهة اليمنى.

اليسار: تفصيل لعازف ربابة، إيران الصفوية، قزوين، موقعة من جانب «محمد جعفر» في عام 1590. ألوان مائية معتمة وذهب على ورق.
صندوق هذه الربابة مغطىً بقشرة خضراء، في حين زُيِّن «الكتف» الخشبي عند قاعدة العنق بحلية مدورة من اللؤلؤ **mother-of-pearl** المرصَّع أو العاج والأبنوس. ويبدو أن الربابة التي تعزف بنقرة طويلة تملك وترين أسودين وأربعة أوتار بيضاء. ويبدو أن النباتات والغيوم الملتفة تزيد من الانطباع الرومانسي الذي توحي به هذه الشابة الأنيقة، التي توقفت لتعزف هذا اللحن.

تفاصيل من إبريق «بلاكاس Blacas».
اليسار: تكمن الأهمية الخاصة لتصوير هاتين الشخصيتين الموسيقيتين اللتين تعزفان على العود والدف في كونهما امرأتين. وعلاوة على ذلك، فإن الوجه المغطى لعازفة العود ليس أمراً معتاداً قط، وربما يدل على أنها كانت من طبقة اجتماعية رفيعة.

اليسار: تظهر إلى جانب الميدالية التي يبدو داخلها عازف العود على عنق الإبريق شخصية راقصة ترتدي قناعاً لوجه حيواني فضلاً عن ذنب طويل.